Arrasikhun International Journal, Volume 3, Issue 1 July 2017
ISSN: 2462-2508

ظاهرة التحرج من التفسير في صدر الإسلام

إقبال بن عبد الرحمن سعود ابداح

جامعة طيبة /كلية الآداب و العلوم الانسانية بينبع
قسم الدراسات القرآنية / السعودية
iqbal_ibdah@hotmail.com

الملخص

رصد هذا البحث ظاهرةً في تاريخ التفسير تتعلق بمرحلة صدر الإسلام وتتلخص الإشكالية بما يلاحظه المختصون والمهتمون وبجلاء أنَّ وجازة التفاسير المنقولة لنا واقتضابها تشي بأن لهذا السوك في التعامل مع القرآن له من الأسباب والمقدمات والأدلة ما يجعله ظاهرة استحقت التأمل والدراسة، سواءٌ اكان المقصد فهماً أو افهاما. أما المنهج المتبع فتمثل باستقراء علاقة المفسرين في صدر الاسلام مع النص القرآني عند الحاجة إلى تفسيره أو فهم معانيه ، من خلال معرفة وسائلهم المتبعة ، والوقوف على الأسباب التي حالت دون إكثارهم من التفسير، والخلوص بدلالات لكل ما تقدم. وهدف الباحث إلى تقصي أسباب ظاهرة التحرج والتورع من التفسير، عارضاً لنماذج تؤكد فشو هذا الأمر، أملا في الوقوف على أبرز دلالاته وآثاره، بغية إعادة فهم علاقة علماء السلف مع تفسير القرآن وأبرز ملامحها ومحدداتها، ناشدين من ذلك الوقوف على منهجم المبارك من خلال استجلاء وتمحيص ظاهرة التحرج من التفسير أما النتائج فقد ظهر جلياً تورع أهل صدر الإسلام من القول في تفسير القرآن بغير علم، ورغبتهم بعدم القول فيه حتى مع العلم أحياناً مهابة وإعظاماً لكلام الله، خشية القول على الله بغير ما يريد.

الكلمات المفتاحية:

التفسير، التحرج، الدراسات القرآنية، تاريخ القرآن

Arrasikhun International Journal, Volume 3, Issue 1 July 2017
ISSN: 2462-2508

The phenomenon of contradiction in the interpretation of Islam

Iqbal Abdallah Abdulrahman suud

University of Taiba / Faculty of Arts and Humanities in Yanbu
Department of Quranic Studies / Saudi Arabia

iqbal_ibdah@hotmail.com

Abstract

This research discussed a phenomenon in the history of interpretation related to the early stage of Islam which is summarized by what is noted clearly by experts and the concerned that the validity of the narrated interpretations to us and the fact that this behavior in dealing with the Koran has reasons, justifications and evidence making it a phenomenon worthy of exploratory reflection and study.

The approach followed is to extrapolate the interpreters' relationship with the Qur'an whenever interpreting or understanding its meanings is necessary, and by recognizing their methods and identifying the reasons behind conservative approach to interpretation.

The researcher hopes to spot the light on their blessed approach by clarifying and scrutinizing of the phenomenon of ambiguity of interpretation.

The results of this study show that interpreters of the early stage of Islam were cautious in discussing the Quran without deep knowledge and their unwillingness to argue as a glorification of the words of Allah.

Arrasikhun International Journal, Volume 3, Issue 1 July 2017
ISSN: 2462-2508

بسم الله الرحمن الرحيم

1.المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، خلق الروح والقلم، وخلق الخلق من عدم، ودبّر الأرزاق والآجال بالمقادير وحكم، وجمّل الليل بالنجوم في الظلم، وصلّ اللهم على نبينا محمد الذي سلم عليه الحجر، وحنَّ إليه الشجر، وانشق له القمر، وعلى صحابته عقود الجمان والدرر.

أما بعد:

فتعد الجرأةُ على التفسير أحدَ أهمِّ الأسباب التي شكلت ملامح وخصائص التفسير في عصر الصحابة الكرام وهم الذين شهدوا الوقائع والأحداث ونزل القرآن بين ظهرانيهم.

ولأن فهمهم لطبيعة ما يجب أن تكون عليه العلاقة يمثل في بعده الدائم إرشادات على الطريق للسائرين والمشتغلين بعلم التفسير.

كما أن الدراسة تمثل حالة رصد معمقة لتلك الأسباب بغية الوقوف على اللحظي والوقتي منها وما يلزم تعميمه.

ومن الأسباب الموجبة والدافعة للكتابة فيه أنه غالباً ما يتم تناوله بشكل نمطي مقتضب أو من خلال أمثلة عابرة مشهورة ومتداولة دون إفراد الموضوع بالعناية والدرس مع ما يستحقه، وقد غدا إدراكنا له يرتقي لدرجة وصفه بالظاهرة ، هذا فضلا عن كونه مزية من مزايا التفسير في تلك المرحلة المباركة.

هادفين من وراء ذلك بناء مرجعية أصولية تنظم التعامل مع التفسير في ضوء مستجدات متنوعة على مختلف العلوم المحيطة بالتفسير والخادمة له.

كما أن تنوع مدارس وأساليب وأغراض التفسير بدأ يلح علينا بإفساح المجال أمام التفسير بالرأي المحمود حتى لا يصبح التفسير مع مرور الوقت معزولاً عن الواقع ومغيباً عن مستجدات الحياة وفاقداً للتواصل والتفاعل، زيادة على ما في ذلك من تقديم الحلول لهذه المستجدات.

هذا وقد وقعت الدراسة في مقدمة وثلاثة مباحث مقسمة على النحو الاتي :

المبحث الأول: التحرج من التفسير وأدلة وجوده، وفيه مطلبان الأول: ظاهرة التحرج من التفسير في صدر الاسلام و الثاني: أدلة حصول التحرج من التفسير

أما المبحث الثاني فقد تناول أسباب التحرج من التفسير عند الصحابة والتابعين، وفيه أربعة مطالب :الأول: النصوص التي توهّم من فسر القرآن بغير علم والثاني: العلاقة العملية مع القرآن الكريم والثالث: التورع من الجرأة على التفسير والرابع: عدم حصول السماع لما بدا له من التفسير.

وفي المبحث الثالث عرضت للتطبيقات العملية عن تحرج السَّلف في التفسير بغير علم وفيه ثلاثة مطالب :الأول: أمثلة عن التحرج في التفسير بغير علم في عصر الصحابة والثاني: أمثلة عن التحرج في التفسير بغير علم في عصر التابعين ومن بعدهم والثالث: دلالات التحرج وآثاره ، وفيه سجلت أبرز ما خلصت إليه في البحث من النتائج والتوصيات.

والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا البحث كاتبه وأن يعم بنفعه قارئيه ، وأن يجعله حجة لنا لا حجة علينا ، فإن حالفنا التوفيق والسداد فذلك عين المراد بعد رضى المولى سبحانه وإن كانت الأخرى فعذري أني بذلت وسعي وجهدي وفهمي ، وأعوذ بالله الزيغ والضلال ومن همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

2.المبحث الأول: ظاهرة التحرج من التفسير

لا يحتاج الباحث إلى أي قدر من التتبع حتى يخلص إلى أن التفسير في عصر الصحابة الكرام —من الناحية الكمية– هو أقل حجوم التفسير قياساً لما بعده، وهو بذلك يشكل محلاً للتساؤل ومحوراً للمراجعة و دافعا للتمحيص.

ومما يستدعي الانتباه في هذا المقام أن نجد أن مَن هم أقل بضاعة وفهماً للعربية والأكثر بعداً وافتقاداً لرسول الله – صلى الله عليه وسلم– هم الأكثر إنتاجاً في التفسير على نحو يجعل المقارنة متعذرة مع جيل الصحابة — رضوان الله عليهم– الذين نزل القرآن بين أظهرهم وعاصروا نزوله وشهدوا الوقائع والأحداث وسمعوا من رسول الله —صلى الله عليه وسلم– بيانه للقرآن، هذا علاوة على ما فيهم من النجابة والخيرية وسلامة اللسان وبعدهم عن الحوشي والغريب. [1]

ولنا أن نرصد إشارة ذات دلالة هنا أن من عدّهم المؤلفون في طبقات المفسرين من مفسري الصحابة بلغ عند الأدنوي عشرة فقط. [2]

بينما ترجم للطبقات الأخرى بمعدل لا يقل عن خمسين ترجمة في كل طبقة.

([1]): ينظر :ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد (1413هـ) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز(الطبعة الأولى) ، دار الكتب العلمية– لبنان. 11/1.

([2]): ينظر: الأدنوي، أحمد بن محمد، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي،(1417هـ) طبقات المفسرين(الطبعة الأولى) مكتبة العلوم والحكم– السعودية. 9/3.

وهذا مؤشر لا يخفى على تضخم التفسير كمًّا ونوعاً بازدياد طردي واضح عن زمن النزول المبارك.

لذا فإن مثل هذه الظواهر يجب أن تدرس بعناية وأن لا يكتفى منها بمجرد الآراء الانطباعية العابرة ؛كونها قد شكلت ظاهرة متكاملة العناصر.

وسأعرض فيما يلي لهذه الظاهرة بعد التعريف بمفردات العنوان.

1,2 المطلب الأول: ظاهرة التحرج من التفسير في صدر الإسلام

1,1,2 الظاهرة: الظَّاءُ وَالْهَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ وَبُرُوزٍ. مِنْ ذَلِكَ: ظَهَرَ الشَّيْءُ يَظْهَرُ ظُهُورًا فَهُوَ ظَاهِرٌ، إِذَا انْكَشَفَ وَبَرَزَ وَهُوَ يَجْمَعُ الْبُرُوزَ وَالْقُوَّةَ.[1]

أما في الشق الاصطلاحي فيمكن تعريف الظاهرة الاجتماعية بأنها: (ضرب من السلوك ثابتاً كان أو غير ثابت يمكن أن يباشر نوعاً من القهر الخارجي على الأفراد، أو هي سلوك يعم المجتمع بأسره، وتختلف عن الصور التي تتكون منها الحالات الفردية). [2]

2,1,2 التحرج: هو التأثم وأصله من الحَرَج وهو الضيق، ومنه الحَرَجة وهي الغيضة، وقد قرئ ﴿ ث ث ذ ذ﴾ (الأنعام: 125) وحَرِجاً. [3]

وتحرَّج من كذا: تأثم، وحقيقته: جانَبَ الحرج. [4]

3,1,2 من التفسير: ويقصد به هنا القول بتفسير القرآن بالرأي السديد غالباَ، والتحرج من تداول أو نقل أو تبليغ المأثور خشية عدم مطابقة الفهم لمقتضى حال الآية أو السورة تورعاً ومهابة.

4,1,2 في صدر الإسلام: صدر الإسلام مصطلح تاريخي يستخدم للدلالة على السنوات الأولى للإسلام، وتشمل تلك الفترة الممتدة من بعثة محمد –صلى الله عليه وسلم– إلى آخر أيام الخلفاء الراشدين، والتي انتهت بنهاية العقد الرابع الهجري وقيام الدولة الأموية بعدها ، يسبقه العصر الجاهلي ويليه العهد الأموي. [5]

2,2 المطلب الثاني: أدلة حصول التحرج من التفسير

قبل الشروع في بيان الأدلة يحسن التنبيه إلى أن علماء الصحابة الكرام ومن بعدهم من التابعين كانوا يعينون من يسأل طلباً لفهم آية أو يصححون لمن حمل الكلام على غير ما بلغهم معناه ، فلم يكتموا علماً ولم يتكلفوا فهماً.

وقد عقدوا المجالس لتدارس آياته وتدبر معانيه وساروا في الأقطار والامصار مبلغين له ومعلمين حدوده وأحكامه وآدابه وقصصه وأمثاله.

فما كانوا يكتمون علماً بحجة التورع والتحرج ، بل غاية ما فعله التحرج فيهم أن ردهم عن التفسير بالرأى بغير علم ، وهي جرأة جنبهم إيمانهم الوقوع بها.

ومن المعلوم أن الاحتياج إلى التفسير يتناسب طردياً مع زمن النزول، فكلما زاد البعد زادت الحاجة إلى تفسير مفردات وتراكيب جديدة لأسباب منها: الهجر والعُجمة وقلة المعايشة مع نصوص القرآن الكريم، زيادة على ظهور بدائل تعبيرية غريبة للمفردات الأصيلة.

وفيما يلي عرض لأبرز أدلة التحرج في تلك المرحلة:

1,2,2 أولاً: قلة عدد المفسرين من الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، وقد عدهم السيوطي وهم: الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير–رضي الله عنهم أجمعين–. [6]

(1) : ابن فارس ، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين ،تحقيق :عبد السلام محمد هارون (1399هـ) معجم مقاييس اللغة: دار الفكر، باب الظاء والهاء وما يثلثهما، مادة(ظهر).

([2]): دوركايم، أميل، ترجمة: محمود قاسم، (1950م) قواعد المنهج الاجتماعي في علم الاجتماع، القاهرة. 41.

([3]): ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل(1417هـ) المخصص(الطبعة الأولى) بيروت ، دار إحياء التراث العربي مادة: (حرج).

([4]): المطرزي، ناصر بن عبد السيد برهان الدين الخوارزمي(د.ت) المغرب في ترتيب المعرب، ، دار الكتاب العربي. مادة (ح ر ج).

([5]): عمر ، السيد (2010م) الدور السياسي للصفوة في صدر الاسلام (الطبعة الأولى) دار السلام للطباعة والنشر و التوزيع ، القاهرة ص23–25 بتصرف.

([6]): ينظر :السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (1394هـ) الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب 233/4.

وهناك من الصحابة من تكلم في التفسير –أيضاً –كأنس بن مالك وأبي هريرة وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عمرو بن العاص وعائشة وغيرهم.

غير أن ما نقل عنهم في التفسير قليل جداً، ولم يكن لهم من الشهرة بالقول في القرآن ما كان للعشرة المذكورين أولاً، كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير تفاوتوا قلة وكثرة، فأبي بكر وعمر وعثمان لم يرد عنهم في التفسير إلا النزر القليل.

ويرجع السبب في ذلك إلى تقدم وفاتهم واشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات، أضف إلى ذلك وجودهم في وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله واقفون على أسراره، عارفون بمعانيه وأحكامه، مكملة فيهم خصائص العروبة مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهم في التفسير غير كبيرة. [1]

أما علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه في التفسير، والسبب في ذلك راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدة طويلة، دامت إلى نهاية خلافة عثمان –رضي الله عنه–، وتأخر وفاته إلى زمن كثرت فيه الحاجة إلى من يفسر للناس ما خفي عنهم من المعاني. [2]

ولعلَّ كثرة الرواية في التفسير عند عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبيّ بن كعب راجع فيما يرجع إليه عدم تحرجهم من الاجتهاد وتقرير ما توصلوا إليه باجتهادهم ومخالطتهم للنبي –صلى الله عليه وسلم– مخالطة مكنتهم من معرفة الحوادث التي نزلت فيها آيات القرآن باستثناء ابن عباس الذي توفي رسول الله وهو في مقتبل عمره.

وإزاء هذه الكثرة من الروايات عن ابن عباس فقد أثار هذا الأمر نقاد الأثر ورواة الحديث الذين وقفوا إزاء هذه الروايات التي تجاوزت الحد وقفة المرتاب. [3]

وبالإشارة إلى هذه الكثرة المشكوك في نسبتها له يقول الذهبي: (وليس لمعترض أن يعترض علينا بتفسير ابن عباس، فإنه لا تصح نسبته إليه بل جمعه الفيروز آبادى ونسبة إليه، معتمداً في ذلك على رواية واهية، هي رواية محمد بن مروان السدي، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس وهذه هي سلسلة الكذب كما قيل). [4]

2,2,2 ثانياً: وَجازة ما ورد عن الصحابة من تفسيرات:

لم تكن الحاجة إلى التوسع والتعمق في التفسير في عصر الصحابة قائمة كما هو الحال في القرون التالية وذلك لعدم حاجة الناس إلى ذلك فهم أهل البيان والسليقة والقريحة النقية .

ويظهر ذلك بالاقتصار على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه بأخصر لفظ مثل قولهم: ((فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)) (المائدة: 3)، أي غير متعرض لمعصية، فإن زادوا على ذلك فمما عرفوه من أسباب النزول. [5]

3,2,2 ثالثاً: أنَّ أغلب ما نقل عنهم من التفسير كان من التفسير بالمأثور أو المرفوع:

وليس أدل على هذا مما رواه أبو الطفيل قال: (شهدت عليًا يخطب وهو يقول: سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل). [6]

وأبرز ما ينكشف من هذه الرواية أن التفسير الذي كان يتداوله ويبلغه علي بن أبي طالب هو من المأثور الذي يقل فيه الحرج.

خاصة أن ما عَرض علي رضي الله عنه على الناس علمه به هو من المكي والمدني وأسباب النزول، ولم يدعِ علماً مطلقاً أو قولاً بالرأي، وهو دليل ضمني عن الامتناع عن التفسير بالرأي ووقوف عنده.

4,2,2 رابعاً: مواقف تؤكد توقف الصحابة عن التفسير بغير علم:

([1]): الحاجي، محمد عمر(1427هـ) موسوعة التفسير قبل عهد التدوين(الطبعة الأولى) دار المكتبي– دمشق 197.

([2]): الذهبي، محمد السيد حسين(د،ت) التفسير والمفسرون، مكتبة وهبة– القاهرة، د. ط، 49/1.

([3]): المصدر نفسه، 59/1.

([4]): المصدر نفسه، 73/1.

([5]): قطب، سيد إبراهيم حسين الشاربي(د،ت) التصوير الفني في القرآن الكريم، (ط17)، دار الشروق. 27.

[6]): المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام ، تحقيق: بكري حياني، صفوة السقا (1401هـ) **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال** (الطبعة الخامسة) بيروت، مؤسسة الرسالة، ، 565/2.

ومنه قول أبي بكر الصديق –رضي الله عنه–: (أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم). [1]

وفي رواية أخرى: (إن قلت في القرآن برأيي أو بما لا أعلم). [2]

يقول الإمام السيوطي: (ولا أحفظ عن أبي بكر –رضي الله عنه– في التفسير إلا آثاراً قليلة جداً لا تكاد تجاوز العشرة). [3]

ومما يذكر في هذا السياق أيضاً أن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– قرأ على المنبر ((**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**)) (عبس: ٣١) فقال: قد عرفنا الفاكهة، فما الأب؟ فقال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف). [4]

إذ إنَّ فهم كل مدلولات الخطاب القرآني وما فيه من إشارات وأحكام ودقائق لا يتوفر لكل أحد من الصحابة، ودليلنا على ذلك خفاء معنى (الأب) ومعنى (التخوف) على عمر رضي الله عنه ، وخفاء معنى (فاطر) على ترجمان القرآن عبد الله بن عباس، فكيف بشأن غيرهم من الصحابة.

يقول الذهبي: (لا شكَّ أنَّ كثيراً منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالي للآية، فيكفيهم –مثلًا– أن يعلموا من قوله تعالى: ((**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**)) (عبس: ٣١)، أنه تعداد للنعم التي أنعم الله بها عليهم، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معنى الآية تفصلاً ما دام المعنى المراد واضحاً جلياً). [5]

وعن عبد الله بن أبي مليكة (أن رجلا سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله عز وجل: ((**و إن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون**)) (الحج: ٤٧)) فقال: من أنت؟ فذكر له أنه رجل من كذا وكذا، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: فما **يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** (المعارج: ٤) فقال الرجل: رحمك الله إنما سألتك لتخبرنا، فقال ابن عباس: يومان ذكرهما الله عز وجل في كتابه الله أعلم بهما فكره أن يقول في كتاب الله بغير علم) ([6])

وهذا الأثر كاشف عن امتناعه عن التفسير –رضي الله عنه وعن أبيه– مع مكانته العالية وكعبه الرسخ في التأويل ، وهذا مما يستدل به على تنكب الصحابة للتفسير بالرأي المذموم واقتحام المعنى بغير دليل ولزومهم البيّن من القول وزهدهم بالمتكلف منه.

وفي حوار بين ابن عباس وابن الخطاب –رضي الله عنهم – يظهر لنا موقف ابن عباس من التفسير بالرأي، فقد سأل ابن الخطاب ابن عباس: (كيف تختلف هذه الأمة ونبيُّها واحد وقبلتها واحدة ؟ فقال: يا أمير المؤمنين: إنا نزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا). [7]

والدليل على قيام الحاجة للتفسير هو ذهاب بعض منهم إلى أفهام استدعت من النبي –عليه السلام– التعريض ببعدها وظاهريتها، ومن ذلك:

ما أخرجه البخاري في صحيحه: (أن عدي بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى: ((حتى **يتبين لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**)) (البقرة: ١٨٧)، وبلغ من أمره أن أخذ عقالاً أبيض وعقالاً أسود،

([1]): الإمام مالك، تحقيق: عبد المجيد تركي (1994م) **موطأ الإمام مالك**(الطبعة الأولى) دار الغرب الإسلامي 522/2.

(2): البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول(1410ه) **شعب الإيمان** (الطبعة الأولى) بيروت ، دار الكتب العلمية 424/2.

([3]): السيوطي : الاتقان في علوم القرآن : 233/4

([4]): الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (1367ه) البرهان في علوم القرآن(الطبعة الأولى) دار إحياء الكتب العربية 295/1. وللتخريج ينظر: سنن سعيد بن منظور، 181/1.

([5]): الذهبي: التفسير والمفسرون، 30/1.

6): الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (1411 - 1990) **المستدرك على الصحيحين** (الطبعة الأولى)، دار الكتب العلمية – بيروت ، كتاب الأهوال ، برقم 8803، 652/4 ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه

([7]): أخرجه أبو عبيد في **فضائل القرآن** ،45-46، وسعيد بن منصور في سننه ، 1/ 176/ رقم 42، ومن طريقه البيهقي في شعب الايمان ،5/ 230-231/ رقم 2086، والخطيب البغدادي في الجامع ،2/ 194/ رقم 1587، عن هشيم عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي به ، والتيمي لم يدرك زمن عمر؛ فإسناده منقطع. وأخرجه ابن ديزيل في جزئه رقم 26 من طريق هشيم عن إبراهيم التيمي به؛ دلس في هذا الإسناد وأرسل، والبقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط(1408ه-1987م) المقصد الأسمى في مطابقة اسم كل سورة للمسمى(الطبعة الأولى) الرياض ، مكتبة المعارف 413/1.

فلما كان بعض الليل نظر إليهما فلم يستبينا، فلما أصبح أخبر الرسول – صلى الله عليه وسلم– بشأنه، فعرّض بقلة فهمه وأفهمه المراد). [1]

5,2,2 خامساً: إحالة ما يعرض لهم من التفسير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ويكون ذلك إما تحرجاً من التفسير أو تورعاً للقطعي دون الظني والمؤدى واحد.

فكان الواحد منهم إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله رجع إلى رسول الله في تفسيرها فيبين له ما خفي عليه؛ لأن وظيفته —عليه السلام – البيان، كما قال تعالى: ((**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**)) (النحل:44).

ومن هذا النوع ما رواه أحمد والشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال: (لما نزلت هذه الآية ((**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ**)) (الأنعام: ٨٢) شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ((**إن الشرك لظلم عظيم**)) لقمان الآية 13 إنما هو الشرك.[2]

ومنه أيضاً ما أخرجه البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة —رضي الله عنها– قالت: قال رسول الله —صلى الله عليه وسلم–: (من نوقش الحساب عذّب) قلت: أوليس يقول الله تعالى : ((**فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً**)) (الانشقاق:٨)، قالت: فقال: (إنَّما ذلك العرض ولكن: من نوقش الحساب يهلك).[3]

وقد روي عن الشافعي أنه قال: (إنه لا يحل تفسير المتشابه إلا بسنة أو خبر أو إجماع).[4] ولم يحدد المتشابه في هذا.

6،2،2سادساً: النَّص على من لم يتحرج من التفسير بالرأي:

فقد كان الفاشي والمنتشر بين الصحابة التفسير المأثور الذي تعلموه وعلموه لمن بعدهم، ولما كان التفسير بالرأي يشكل استثناء في هذا السياق فقد أرجعت المصادر ما امتاز به أهل العراق بأنهم أهل الرأي إلى كون عبد الله بن مسعود وهو واضع الأساس لهذه الطريقة في الاستدلال ثم توارثها أهل العراق عنه فيما بعد وأثرت في مدرسته في التفسير، فكثر تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد. [5]

والظاهر أنَّ هذه الطريقة في الاستدلال مرجعها إلى ما روي عن ابن مسعود أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: (إن للقرآن ظاهراً وباطناً). [6] وهو ليس بالباطن الذي يقوله الباطنية، إنَّما الباطن الذي تدل عليه إشارات العبارات القرآنية، من أسرار الإعجاز القرآني. [7]

وعن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن قوله تعالى: ((**أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما**)) (الأنبياء: ٣٠)، فقال: اذهب إلى ابن عباس فسله، ثم قال: فذهب فسأله، فقال: كانت السماوات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر وهذه بالنبات).

([1]): الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، **المسند الصحيح بنقل العدل عن العدل إلى رسوله الله** —صلى الله عليه وسلم–، ، دار إحياء التراث–بيروت. باب " بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر"، كتاب الصيام، برقم 1090 ، وينظر: الذهبي، التفسير والمفسرون، 30/1. وابن حجر، أبو الفضل أحمد بن محمد العسقلاني، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس (د،ت)العجاب في بيان الأسباب، ، دار الجوزي، 448/1.

([2]): البخاري، محمد بن إسماعيل الجعفي تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر (١٤٢٢ه) **الجامع المسند المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه (صحيح البخاري)(الطبعة الأولى)** دار طوق النجاة. باب "قول الله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ""، كتاب الأنبياء، برقم: 3246.

([3]): أخرجه البخاري في صحيحه، باب "من سمع شيئاً لم يفهمه فراجع فيه حتى يعرفه"، كتاب العلم، برقم 103.

([4]): الأسنوي، عبد الرحيم بن الحسن بن علي الشافعي، تحقيق: محمد حسن هيتو(١٤٠٠ه) التمهيد في تخريج الفروع على الأصول(الطبعة الأولى) بيروت، مؤسسة الرسالة502 ،وينظر: دروزة، محمد عزت(1383ه) التفسير الحديث (د،ط) القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ،271/1.

([5]):ينظر: الذهبي: التفسير والمفسرون، 89/1.

([6]): العراقي، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم(1426ه) تخريج أحاديث إحياء علوم الدين(الطبعة الأولى) دار ابن حزم– بيروت. 117/1. وأخرجه ابن حبان في صحيحه.

([7]): أبو زهرة، محمد بن أحمد(د،ت) المعجزة الكبرى القرآن(د،ط) دار الفكر، 414.

فرجع إلى ابن عمر فأخبره، فقال: قد كنت أقول: ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتي علماً). [1]

ولم يكن هذا التحرج حكراً على عصر الصحابة المبارك، وإنما استمر بعد ذلك، يقول ابن عطية: (وكان جلة من السلف الصالح كسعيد بن المسيب وعامر الشعبي وغيرهما ممن يعظمون تفسير القرآن ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم). [2] ، ومن الأدلة على وجود نظرة سلبية عموماً حول التفسير بالرأي وعده جرأة تؤخذ على صاحبها ما ذكره ابن حجر العسقلاني عن زيد بن أسلم: (فقد روى حماد بن زيد عن عبيد الله بن عمر أنه قال فيه: (لا أعلم بأساً، إلَّا أنَّه يفسر برأيه القرآن ويكثر منه، وهذه شهادة من عبيد الله بن عمر أن زيداً ثقة لا يؤخذ عليه شيء إلا أنه كان يكثر من القول بالرأي). [3]

ومما يمكن ذكره هنا –أيضاً– أن رجلاً سأل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن، فقال: (لا تسألني عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه شيء –يعني عكرمة–). [4]

ومما تقدم يمكن أن نلمح مؤشرات تدل على أن التحرج من التفسير بغير علم كان سمة ملازمة للتفسير في ذلك العصر .

3 المبحث الثاني: أسباب التحرج من التفسير عند الصحابة والتابعين:

بداية يلزم التفريق بين قلة المروي من التفسير عن الصحابة بسبب فهمهم للقرآن كونهم عرباً خلصاً وبين التحرج المانع للتفسير بالرأي الحميد.

ويبدو أنَّ هذا التحرج المانع من التفسير عند علماء السلف مرده إلى جملة من الأسباب شكلت مجتمعة عناصر ظاهرة التحرج من التفسير في صدر الإسلام ويمكن بيان ذلك وفقا للمطالب الآتية :

1,3 المطلب الأول: النصوص التي تؤثّم من فسر القرآن بغير علم.

أعرض فيما يأتي لأبرز النصوص الشرعية التي جعلت علماء السلف يتوقفون ويتحرجون عن تفسير القرآن أخذاً بالأحوط والأسلم

1,1,3 أولاً: الآيات القرآنية: الخشية من الوقوع تحت قوله تعالى: ((**وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**)) (الأعراف: ٣٣).

يقول الطبري: (فالقائل في تأويل كتاب الله، الذي لا يدرك علمه إلا ببيان رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي جعل الله إليه بيانه –قائلٌ بما لا يعلمُ وإن وافق قيله ذلك في تأويله، ما أراد الله به من معناه ؛ لأن القائل فيه بغير علم، قائلٌ على الله ما لا علم له به). [5] وغاية ما يمكن قوله يكون ظناً ،وردَّ المجيزون ذلك بأن الظن نوع من العلم إذ هو إدراك الطرف الراجح.

ولم يكن هناك فارقٌ كبير بين منهج الصحابة ومنهج التابعين لكونهم إنما تلقوا التفسير عن الصحابة، وورثوا عنهم –أيضاً– الورع عن القول في القرآن بغير علم.[6]

وقد تفطن ابن عاشور لوجه تخصيص القول على الله مع كونه مشتملا بما قبله فقال (وخصه بالعطف مع أنه بعض السوء والفحشاء لاشتماله على أكبر الكبائر وهو الشرك والافتراء على الله)([7])

2,1,3ثانياً: الأحاديث النبوية: فبالنظر الى تلك الاحاديث الشريفة نجد أنَّ بعضها قد ألمح إلى هذا الحرج أو فهم منه ضرورة التحوط و لزوم الحذر ومن أهم تلك الأحاديث :

([1]): أبو نعيم ، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني ، (1394هـ – 1974م)**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** (د،ط) مصر ،دار السعادة ، والأثر ضعيف لضعف حمزة بن أبي محمد المدني ، فقد قال عنه أبو حاتم الرازي: (ضعيف الحديث، منكر الحديث، لم يرو عنه غير حاتم) ينظر : ابن أبي حاتم ، أبو محمد عبد الرحمن الحنظلي، الرازي (1271 هـ 1952 م)، الجرح والتعديل (الطبعة: الأولى) بيروت، دار إحياء التراث العربي

([2]): ابن عطية: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 39/1.

([3]): ابن حجر العسقلاني: العجاب في بيان الأسباب، 217/1.

([4]): ابن أبي شيبة، أبو بكر ، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، المحقق: كمال يوسف الحوت (1409هـ) **المصنف في الأحاديث والآثار** (الطبعة: الأولى)، الرياض ، مكتبة الرشد ، ولم أقف عليه في الكتب التسعة وغيرها.

([5]): الطبري ، محمد بن جرير ، جامع البيان 79/1.

([6]): الرومي، فهد بن عبد الرحمن(1407هـ) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، (الطبعة الأولى) طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء ،السعودية 30/1.

(7) : ابن عاشور ، محمد الطاهر بن محمد عاشور التونسي (1984 م) التحرير والتنوير (د،ط) تونس الدار التونسية للنشر ، 105/2

1. ما رواه الترمذي عن ابن عباس عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (اتقوا الحديث عليّ، إلا ما علمتم، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار). [1]
2. ما يرويه الترمذي عن جندب قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: (من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ). [2]

وإن كان الحديثان محمولين على من قال برأيه في نحو المشكل والمتشابه مما لا يعلم إلاَّ من طريق النقل عن النبي –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه.

وفي كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان يقول ابن الأنباري معلقاً على هذا الحديث : ((فُسِّر حديث ابن عباس تفسيرين: أحدهما: من قال في مشكل القرآن بما لا يعرف من مذهب الأوائل من الصحابة والتابعين فهو متعرض لسخط الله.

والجواب الآخر: وهو أثبت القولين وأصحهما معنى: من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده من النار، ومعنى يتبوأ: ينزل ويحل)) [3]

ومما لاشك فيه أن إحاطة التفسير بهذه الروعة الدينية كان سبباً في تجنب التفسير أخذاً للحيطة والأسلم.

يقول الساعاتي: (ومع التعظيم لقدر التفسير والمفسرين الذين يعلمون فيم أنزلت الآيات وماذا أريد بها، فإن السلف –رضوان الله عليهم– كانوا يتحرون في التفسير ألا تتحكم فيما يقولون من الآيات أغراض خاصة، أو أهواء شخصية أو ظروف طارئة.

ولكنهم كانوا يجردون أنفسهم من كل ذلك حتى يكون القرآن أميراً على تصرفاتهم ويكون هواهم تبعاً لما جاء به رسولهم –صلى الله عليه وسلم– وهو صريح الإيمان، ومن هنا كان الكثير منهم يتحرج من التفسير ويخاف أن يقول في القرآن برأيه). [4]

2,3 المطلب الثاني: العلاقة العملية مع القرآن الكريم:

يعد التفسير في شقه العلمي علاقة نظرية مع القرآن في سبيل الفهم أو تبليغ المفهوم، ولما كان مبتغى الصحابة الكرام –والسلف الصالح عموماً– من هذه العلاقة يتجاوز الجانب النظري إلى الجانب العملي، فقد غدا الوقوف مطولاً عند الآيات في سبيل استخراج المعاني الكامنة والأسرار الدقيقة أمراً ترفياً حال دونه الاشتغال بالجلي والواضح دون الانكفاء على رصد وتوثيق وتناقل واستخراج واستنباط معانٍ جديدة.

وليس أدلُّ على ما سبق مما روي عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: (حدثنا أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنهم كانوا يقترئون من رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، فلا يتجاوزون العشر حتى يعلموا ما فيه من العلم والعمل، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعاً). [5]

وهكذا يتضح مدى الارتباط بين القرآن والعمل اكتفاء بالمفهوم منه والمبين الظاهر والمتبادر المعلوم والسنة المتبعة، مما كفاهم مؤونة الاشتغال بالجانب النظري فصرفوا همهم للمقصد والغاية ولم يتوقفوا طويلاً على الأسباب التي قد تحيل جهدهم إلى غير ما أرادوه.

وذلك اعتقاداً بأنَّ القدر البين منه يكفي لتصويب البوصلة واقتفاء الأثر وتحقيق الاتباع اللازم دون تكلف لما هو أبعد منه.

([1]): الترمذي، محمد بن عيسى الضحاك تحقيق: بشار عواد معروف، (1998م) سنن الترمذي،، دار الغرب الإسلامي–بيروت. باب "ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه"، برقم: 2951. وقال: حديث حسن.

([2]): أخرجه الترمذي في سننه، باب "ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه"، برقم: 2952. وقال: هذا حديث غريب، وقد تكلم أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم – أحد رواة الحديث–.

([3]): نقلا عن: القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد أبو بكر الأنصاري الخزرجي تحقيق: هشام بخاري(1423ه) الجامع لأحكام القرآن(د،ط) دار عالم الكتب–الرياض. 22/1، وكتاب ابن الانباري في حكم المفقود ، ينظر ، بحث الدكتور غانم قدوري الحمد بعنوان (كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان لابن الانباري) ، مجلة الحكمة 1417ه، العدد 9 ، 235–237

([4]): الساعاتي، حسن أحمد عبد الرحمن(1423ه)نظرات في كتاب الله(د،ط) القاهرة ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، 91.

([5]): ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني تحقيق شعيب الأرناؤوط (1421ه–2001م) مسند الإمام أحمد بن حنبل(الطبعة الأولى) مؤسسة الرسالة، برقم 23482.

ويلزم هنا استشعار أمر آخر أن نزول القرآن بمضامينه التشريعية وهديه وآدابه وقصصه وأمثاله وأحكامه وأوامره ونواهيه قد شكل ثروة كبيرة تكون الإحاطة بالظاهر والمتبادر منها صارفاً عن الاشتغال بالدقائق الخفية.

ومن خصائص هذه المرحلة أيضاً أنهم لا يتكلفون في التفسير ولا يتعمقون ذلك التعمق المذموم فاكتفوا من الآيات بمعناها العام ولم يلتزموا تفصيل ما لا فائدة كبيرة في تفصيله وتحصيله. [1]

3,3 المطلب الثالث: أسباب التورع من التفسير:

يرجع هذا التورع الى سببين رئيسين اولهما: بالنظر لجلال الموقف الذي يقفه المفسر في التوقيع عن رب العالمين ومخافة التهجم على مراد الله أو القطع به، يقول أبو شهبة: (هذا هو السر أن بعض كبار الصحابة والتابعين ومن بعدهم كان يتحرج غاية التحرج من القول في تفسير القرآن الكريم، مع ما كانوا عليه من العلم الغزير والعقل المستنير والقلب المستضيء). [2]

ثانيهما: خشية الإتباع على اجتهاد خاطئ:

ويشفق البعض من أن يُجعل في التفسير إماماً يبنى على مذهبه ويقتفى طريقه، فلعلَّ متأخراً أن يفسر حرفاً برأيه ويخطئ منه ويقول إمامي في تفسير القرآن بالرأي فلان الإمام من السلف. [3]

ومن جملة الأسباب أيضاً المنع من التفسير بالرأي المجرد سداً للذريعة ، فنرى طائفة من علماء السلف يمنعون التفسير بالرأي المجرد ويذمونه ، ونحسب أنَّ المبرر الذي جعل ابن تيمية يتشدد في ذلك هو سدُّ الذريعة لمنع الأوهام التي وجدت بتفسير بعض الإمامية والإسماعيلية والباطنية، حتى وصلوا إلى سبعة بواطن فكان التفسير بالرأي دفعاً لهذه الأوهام الباطنية التي أفسدت المعاني القرآنية بتأويلات لا برهان عليها. [4]

4,3 المطلب الرابع: عدم حصول السماع لما بدا له من التفسير:

فعدم السماع كان سبباً كافياً عند بعضهم أن لا يذيع ما بدا له من فهم أو تكشف له من تدبر ، فقد جاء في تفسير الطبري قوله: (ثنا ثوير، عن أبيه، عن عبد الله "وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت" ثم قال عبد الله: والله لولا التحرج وأني لم أسمع من رسول الله —صلى الله عليه وسلم– فيها شيئاً، لقلت إن العمرة واجبة مثل الحج). [5]

وليس هذا فحسب بل كان من منهجهم الرائع التورع في التحمل والرواية فيبحثون عن علو الإسناد وعمن هو أهل للرواية، فهذا أبو العالية يقول: "كنت أرحل إلى الرجل مسيرة أيام؛ لأسمع منه فأول ما أفتقد منه صلاته، فإن أجده يقيمها أقمت وسمعت منه، وإن أجده يضيعها رجعت، ولم أسمع منه، وقلت: هو لغير الصلاة أضيع "([6])

4 المبحث الثالث: التطبيقات العملية عن تحرج السَّلف في التفسير بغير علم :

1,4 المطلب الأول: أمثلة عن التحرج في التفسير بغير علم في عصر الصحابة:

1,1,4 أولاً: ما أخرجه أبو عبيد في الفضائل عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: {**وَفَاكِهَةً وَأَبًّا**} (عبس: ٣١) فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر). [7]

2,1,4 ثانياً: أنَّ عمر كان على المنبر فقرأ: چڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک چ (النحل: ٤٧)، ثم سأل عن معنى التخوف، فقال رجل من هذيل يقال له ابن مزاحم الثمالي: التخوف عندنا التنقص، ثم أنشده:

([1]): الرومي: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، 29/1.

([2]): 13– أبو شهبة، محمد بن محمد بن سويلم(د،ت) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، (الطبعة الرابعة)،مكتبة السنة 36–27.

([3]): القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 34/1.

([4]): أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى: زهرة التفاسير، دار الفكر العربي 30/1.

(5): الطبري، محمد بن جرير الآمدي: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط1، 1420هـ–2000م، مؤسسة الرسالة. 13/3.

(6) : الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، تحقيق: نور الدين عتر (1395 ه) الرحلة في طلب الحديث (الطبعة: الأولى) بيروت ،دار الكتب العلمية – 93 وينظر موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور (1420 ه) ،حكمت بن بشير بن ياسين : دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة– المدينة النبوية :الطبعة الأولى ، ،15/1

([7]): أبو عبيد، القاسم بن سلام الهروي تحقيق: مروان العطية 1415هـ–1995م فضائل القرآن(الطبعة الأولى) دار ابن كثير–دمشق، 409.

تخوف الرجل منها تامكاً قَرِدا كما تحدف عود النبعة السَّفِن.[1]

كان الفرّاء يقول: (العرب تقول: تحوّفته: أي تنقصته، تحوّفا: أي أخذته من حافاته وأطرافه، قال: فهذا الذي سمعته، وقد أتى التفسير بالحاء وهما بمعنى.)[2]

اذ نلاحظ من مقولة الفراء تأكيده على انَّ ما اورده لم يكن الا سردا لما بلغه ومبرِئاً ذمته من شبهة التقوُّل بقوله (فهذا الذي سمعته) ولم ينسبه لنفسه .

3,1,4 ثالثاً: ما أخرجه أبو عبيد من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: (كنت لا أدري ما {**فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ**} (ابراهيم : 10) حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، والآخر يقول: أنا ابتدأتها). [3]

يقول فهد الرومي: (وروي عن كثير من الصحابة نحو ذلك في التحرج من القول في التفسير من غير علم، ولم يكن هذا التخوف ليمنعهم عن القول فيما لهم به علم، ولم يكن ذلك الجيل الفريد من المسلمين يتناول الإسرائيليات في تفسيره, فقد كان –عليه الصلاة والسلام– حريصاً على أن لا يستقوا من غير نبع الإسلام الصافي؛ ولذا فقد غضب –عليه الصلاة والسلام– حين رأى في يد عمر –رضي الله عنه– قطعة من التوراة).[4]

2,4 المطلب الثاني: أمثلة عن التحرج في التفسير بغير علم في عصر التابعين ومن بعدهم:

فيما يأتي عرض لأمثلة كاشفة عن امتناع علماء السلف من التفسير للأسباب التي سبق ذكرها وهي في ذات الوقت تؤكد كون التحرج كان سمة وظاهرة في تلك المرحلة المباركة ومنها:

أولاً: ما روي عن الشعبي أنه قال: (ثلاث لا أقول فيها حتى أموت: القرآن والروح والرؤى). [5]

ثانياً: ما روي عن محمد بن سيرين قال: (سألت عبيدا –يعني السليماني، وهو تابعي جليل– عن آية من القرآن، فقال: (ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل، فاتق الله وعليك بالسداد). [6]

ثالثاً: مِن علماء العربية مَن تحرجوا كذلك في تأويل المتشابه والغريب والأضداد (كان الأصمعي وهو إمام، لا يفسر شيئاً من غريب القرآن)، وحكي أنه سئل عن معنى ((**شغفها حبا**)) (يوسف: ٣٠)، فسكت وقال: هذا في القرآن). (7)

رابعاً: أبو حاتم السجستاني من أعلام البصريين –علماء اللغة والقرآن– كان شديد التحرج من تأويل ما يكون من الأضداد في القرآن والضيق بمن تجاسروا على تأويلها كأبي عبيدة معمر بن المثنى والفرزدق الشاعر بما عندهم من علم العربية.

فيقول السجستاني بعد أن ساق أقوال أبي عبيدة في معنى (عسعس) : (لقد تقلد أبو عبيدة أمراً عظيماً ولا أظن ها هنا معنى أكثر من الاسوداد ؛ عسعس ، أظلَم واسوَدَّ في جميع ما ذكر وكل شيء من ذا الباب في القرآن فتفسيره يتقى وما لم يكن من في القرآن فهو أيسر خطباً) [8]

خامساً: كان أبو عبيدة يقول: (خاف من الخوف ومن اليقين وكان يقول في قوله تعالى: ((**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**)) (النساء: ٣) يريد: أيقنتم، ولا علم لي بهذا؛ لأنه قرآن وإنما نحكيه عن رب العالمين، ولا ندري لعله ليس كما يظن أبو عبيدة. [9]

(1) أبو الفرج الأصبهاني ، تحقيق سمير جابر (د،ت) الأغاني (الطبعة الثانية) ، بيروت ، دار الفكر ،: 82/6 وينظر الطبري : جامع البيان ، 214/17

(2) : الفراء ، أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمي، تحقيق: أحمد النجاتي(د،ت) معاني القرآن (الطبعة الأولى) دار المصرية للتأليف والترجمة ، مصر 101/2

([3]): أبو عُبيد، فضائل القرآن ، 345

([4]): الرومي: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، 28/1.

([5]): الطبري: جامع البيان، 87/1.

([6]): المصدر نفسه، 86/1 وابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير، 225.

([7]): الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 295/1.

([8]):السجستاني ، أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان ، نشرها د/ أوغت هفنر (1912م)كتاب الأضداد (د،ط) بيروت ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، ، 98

([9]):المصدر نفسه، الاضداد، السجستاني ، 88وينظر نقده لتفسير الفرزدق 115ونقده ثانية لأبي عبيدة ،114.

سادساً: كان التابعون يتحرجون في القول في التفسير إلَّا أن تكون الرواية عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أو الصحابة، ولقد قال مسروق: (اتقوا التفسير فإنه الرواية عن الله). [1]

سابعاً: ذكر السمرقندي في تفسيره قوله: (حدثنا معاوية عن الحجاج عن الحكم قال: كان شريح لا يفسر شيئاً من القرآن إلا ثلاث آيات). [2]

3,4 المطلب الثالث: دلالات التحرج وآثاره:

يتضح لنا من خلال العرض السابق لأهم مظاهر التحرج عند السلف عموما ، ومن خلال الأدلة التي توخوها في ذلك جملة من الدلالات و الآثار البعدية الناتجة عن التحرج عند علماء السلف و مفسريهم خاصة و أجملها بما يلي :

1,3,4 أولاً: دلالات التحرج: وفيما يلي تلخيص لأبرزها:

1- أن التحرج لم يكن مطلقاً وإنما كان في الرأي غالباً.

2- حمل التحرج بعض المفسرين على عدم التصريح بما يترجح عندهم من التفسير بالمأثور أو المعقول مسكونين برهبة القرآن في نفوسهم وتورعهم عما يخشى أن تزل به القدم.

3- أن التفسير لأجل الثراء المعرفي لم يكن هاجساً أو هماً حياتياً لهم لاشتغالهم بالأسمى وهو العمل بالقرآن مع وجود الأسوة والقدوة والأنموذج النبوي الشريف مما جعل من التفسير المعمق ترفاً فكرياً غير مبرر وفاقداً للاحتياج له.

4- بالنظر لكونهم عرباً أقحاحاً خُلصاً فقد كان الاحتياج إلى التفسير في عصر الصحابة في أدنى حدوده، لانكشاف المعاني والأحكام بالقدر الكافي وبما يحقق البلاغة السامية والإعجاز المستجلب للإيمان بربانية المصدر.

5- إن وجود النبي –عليه السلام– بين ظهرانيهم كفاهم مؤونة الرأي وصرفهم للفهم والاتباع والتطبيق، ولم يمنع ذلك الحال من اجتهادهم عقب وفاته –صلى الله عليه وسلم– على تفاوت بينهم بين مكثر ومقل وممتنع.

2,3,4 ثانياً: أهم الآثار البعدية لمنهج الصحابة في التفسير:

يعد الاسترشاد بمنهج الصحابة في التفسير نوعاً من التأسي الحسن في التفسير وغيره، ولما كان القرآن يعطي كل ناظر فيه نصيبا من الفهم على قدر علمه وخاصة العلماء من الناس؛ فلا مناص من التدبر في آياته على شريعة من العلم وضمن الضوابط المعروفة.

وأمام ما عرضه البحث من تحرج الصحابة والتابعين عن التفسير يجب التنبه على أمور مستوحاة من تلك المرحلة.

1. أن تحرج الصحابة عن التفسير في حياة النبي –عليه السلام– أمر مسوّغ ويسهل تصوره كونه المكلف بالتبليغ لقوله تعالى:
2. **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** (النحل:44)، أما من جاؤوا بعدهم فقد خسروا أحد مسوغات الامتناع عن التفسير، طلباً للأعلى منه.
3. أن الصحابة الكرام ولكونهم قد عاصروا الأحداث والوقائع، ونزل القرآن بين ظهرانيهم، وشهدوا القرائن فإن ذلك قد أراحهم من مشقة البحث الذي يتولد عنه أفهام جديدة، فالأمور عندهم من الوضوح بمكانه لا يحتاج معها إلى تكلف أو مزيد تدبر، خاصة فيما يتعلق بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمكي والمدني وغيره من علوم التفسير ذات الصبغة التاريخية.
4. ضرورة إعادة الهيبة والتورع واستحضار كون النص القرآني هو كلام الله تعالى، وأنه معجزة خالدة عند محاولة إقدام على تفسير قبس منه.
5. إدراك أن الجرأة على التفسير واستغلال التدبر المندوب إليه بقول تعالى: ﭽ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﭼ (محمد: ٢٤) استغلاله مبررا للتفسير بالرأي قد أسيء توظيفه واتخاذ ذلك كمدخل من مداخل التفسيرات الباطنية والفاسدة على مختلف تسمياتها وأشكال تخفيها.

([1]): الهروي: فضائل القرآن، 277 وابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير، 33.

([2]): السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم، تحقيق: محمود مطرجي (د،ت) بحر العلوم، (د،ط)، بيروت ، دار الفكر605/2.

6. يجب أن يعلم أن الصحابة الكرام في الغالب الأعم لم يكونوا يمتنعون عن تبليغ ما صح لديهم من تفسير النبي أو سمعوه أو بلغ إليهم، حتى لا يبالغ أحدا في مسألة التحرج، وهي على كل حال مسألة نسبية بالقياس إلى من بعدهم مع وجود بعض المسوغات للمراحل والقرون التي زاد فيها البعد عن زمن النزول وفشت فيها العجمة.
7. أن التفسير لم يكن عملاً ذهنياً بقصد الثراء والنمو الفكري والتثقيفي المحض وإنما هو ملازم وناجم عن الحاجة والمقصود والمراد منها.
8. أن التحرج في صدر الإسلام له مسوغاته التاريخية والذاتية، وأنه مع ورود الأدلة التي تحذر من الجرأة المنهي عنها والمذمومة فإن ذلك لا يشكل عائقاً أمام التدبر الواعي والمنبثق عن الرأي المحمود، فهي غاية المبتغى من الفهم القرآني الذي يؤسس للعمل به على أساس وهدي رباني.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

الخاتمة

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على من لا نبي من بعده وبعد:

شكل البحث لكاتبه محطة تدبر وتأمل في تاريخ التفسير عامة وعلى وجه الخصوص مرحلة صدر الإسلام.

وقد خرج الباحث بجملة من النتائج التي أجابت على تساؤلات عديدة حول طريقة التعامل مع القرآن في عصري الصحابة والتابعين على وجه العناية والاهتمام ومن بعدهم على سبيل التتابع والقرب .

وفيما يلي عرض لأبرز ما تلخص من نتائج لهذه الدراسة:

1. تجلية وإبراز مصطلحي التحرج والتورع من التفسير ، وأهمية إدماجهما في أدبيات أصول التفسير.
2. الكشف عن أن التحرج من التفسير في صدر الاسلام كان في التفسير بالرأي ولم يكن في التفسير بالمأثور.
3. أن التحرج من التفسير لم يكن ليمنع الصحابة الكرام والتابعين المرحومين من كتم العلم تذرعاً بهذه الحجة.
4. أن التفسير لأجل الثراء المعرفي لم يكن يشكل هاجساً أو مطلباً حياتياً عند مفسري صدر الإسلام.
5. ضرورة عدم الخلط بين عدم الاحتياج إلى التفسير لجلاء المعنى وظهوره ، وبين التحرج الذي مبعثه التورع والتصاين عن القول على الله بغير علم .
6. التأكيد على أن وجود النبي عليه السلام بين ظهراني الصحابة قد كفاهم مؤونة تكلف المعنى أو تأول الكلام.
7. أن المفسرين في صدر الاسلام كان همهم وهمتهم مصروفة للاتباع والتطبيق بعيداً عن استجماع تحصيل المعاني النظرية .
8. بيان أن التحرج من التفسير بغير علم في صدر الإسلام لا يمنع التدبر والفهم والسعي للتفسير بالرأي وفق الضوابط الشرعية
9. التذكير بتورع الصحابة وهم من عاصر التنزيل وشهد الوقائع وعرف القرآئن والأحداث ، فان كان التورع منهم معلوم فهو في غيرهم أوجب و ألزم.
10. التحذير من التفسير بالرأي غير المحمود مخافة أن يتخذ مطية للأفهام الفاسدة والتفسيرات الباطنية والنوايا الخبيثة.

وبالنظر لأهمية هذا الموضوع فيوصي الباحث بإدراج موضوع التحرج من التفسير بغير علم مع الضوابط والعلوم التي يحتاج إليها المفسر .

وقد بدا لي من خلال الدراسة هذه ضرورة دراسة الثابت والمتغير من سمات التفسير في عصر الصحابة حتى لا يعتقد معتقدٌ أن كل ما كان معمولاً به وجب اتباعه دونما إدراك لما هو مرحلي وما هو مرجعي

5قائمة المصادر والمراجع

بعد القرآن الكريم.

1. ابن أبي حاتم ، أبو محمد عبد الرحمن الرازي (1271 هـ 1952 م)، الجرح والتعديل (الطبعة: الأولى) بيروت، دار إحياء التراث العربي.
2. ابن أبي شيبة، أبو بكر ، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، المحقق: كمال يوسف الحوت (1409هـ) المصنف في الأحاديث والآثار (الطبعة: الأولى)، الرياض ، مكتبة الرشد
3. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس الحراني، ،(1390هـ)، مقدمة في أصول التفسير ، بيروت، دار مكتبة الحياة-.
4. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن محمد العسقلاني(د ، ط) العجاب في بيان الأسباب، تحقيق: عبد الحكيم الأنيس، دار الجوزي.
5. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط (1421هـ) مسند الإمام أحمد بن حنبل (الطبعة الاولى)، بيروت ،مؤسسة الرسالة.
6. ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل(1417هـ) المخصص، (الطبعة الأولى) دار إحياء التراث العربي
7. ابن عاشور ، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (1984 هـ) التحرير والتنوير ، تونس ، الدار التونسية للنشر
8. أبو عُبيد، القاسم بن سلاّم الهروي ، تحقيق: مروان العطية، ,وآخرون (1415 هـ -1995 م) فضائل القرآن ، ، دار ابن كثير ،(الطبعة الأولى) دمشق – بيروت.
9. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد،(1413هـ-1993م) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ، (الطبعة الأولى)، لبنان ، دار الكتب العلمية.
10. ابن فارس ، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين ، تحقيق :عبد السلام محمد هارون (1399هـ، 1979م) معجم مقاييس اللغة ، دار الفكر.
11. أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى: زهرة التفاسير،(د.ت) دار الفكر العربي.
12. أبو زهرة، محمد بن أحمد(د،ط) المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر.
13. أبو شهبة، محمد بن محمد بن سويلم(د،ت) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، (الطبعة الرابعة)،مكتبة السنة.
14. أبو الفرج الأصبهاني ، تحقيق: سمير جابر (د،ت) الأغاني : (الطبعة الثانية) بيروت ، دار الفكر
15. الأدنوني، أحمد بن محمد، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي (1417هـ-1997م) طبقات المفسرين، (الطبعة الأولى) ، السعودية ، مكتبة العلوم والحكم.
16. الأسنوي، عبد الرحيم بن الحسن بن علي الشافعي ، تحقيق: محمد حسن هيتو(١٤٠٠هـ) : التمهيد في تخريج الفروع على الأصول (الطبعة الأولى) ، بيروت،مؤسسة الرسالة.
17. البخاري، محمد بن إسماعيل الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر،(١٤٢٢هـ) الجامع المسند المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه (صحيح البخاري)(الطبعة الأولى) ، دار طوق النجاة.
18. البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط (1408هـ-1987م) المقصد الأسمى في مطابقة اسم كل سورة للمسمى(الطبعة الأولى)، الرياض، مكتبة المعارف.
19. البلخي، مقاتل بن سليمان الأزدي، تحقيق: عبد الله محمود شحاتة(1423هـ) تفسير مقاتل بن سليمان، (الطبعة الأولى)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

20. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول (1410هـ) شعب الإيمان،(الطبعة الأولى)، بيروت، دار الكتب العلمية.
21. الترمذي، محمد بن عيسى الضحاك، تحقيق بشار عواد معروف(1998م) سنن الترمذي (بيروت)دار الغرب الإسلامي
22. الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط1، 1418هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
23. الحاجي، محمد عمر: موسوعة التفسير قبل عهد التدوين، ط1، 1427هـ-2007م، دار المكتبي، دمشق.
24. الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، (1411 - 1990) المستدرك على الصحيحين (الطبعة الأولى)، دار الكتب العلمية – بيروت
25. الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي ،تحقيق: نور الدين عتر (1395 هـ) الرحلة في طلب الحديث (الطبعة: الأولى)، بيروت، دار الكتب العلمية .
26. دروزة، محمد عزت (1383هـ) التفسير الحديث، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.
27. دوركايم، أميل، ترجمة: محمود قاسم ، قواعد المنهج الاجتماعي في علم الاجتماع (1950م) القاهرة، (د،م)
28. الذهبي، محمد السيد حسين(د،ت) التفسير والمفسرون، (د،ط) ، القاهرة ،مكتبة وهبة.
29. الرومي، فهد بن عبد الرحمن (1407هـ) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، (الطبعة الأولى) طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء، السعودية.
30. الزرقاني، محمد عبد العظيم (د،ت) مناهل العرفان في علوم القرآن(الطبعة الثالثة) ، القاهرة مطبعة عيسى البابي الحلبي .
31. الزركشي، أبو عبد الله بدر الدين محمد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (1367هـ) البرهان في علوم القرآن، (الطبعة الأولى) دار إحياء الكتب العربية.
32. الساعاتي، حسن أحمد عبد الرحمن(1423هـ-1992م) نظرات في كتاب الله، ، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.
33. السجستاني، أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان ، نشرها د/ أوغت هغنر (1912م)كتاب الأضداد ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين.
34. السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد ، تحقيق: محمود مطرجي (د،ت) بحر العلوم، بيروت ، دار الفكر.
35. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (1394هـ) الإتقان في علوم القرآن(د،ط) الهيئة المصرية للكتاب.
36. الطبري، محمد بن جرير الآمدي، تحقيق: أحمد محمد شاكر (1420هـ) جامع البيان في تأويل القرآن(الطبعة الأولى) ، مؤسسة الرسالة.
37. العراقي، أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم(1426هـ) تخريج أحاديث إحياء علوم الدين، (الطبعة الأولى) بيروت ، دار ابن حزم.
38. عمر ، السيد (2010م) الدور السياسي للصفوة في صدر الاسلام (الطبعة الأولى) القاهرة، دار السلام للطباعة والنشر و التوزيع.
39. الفراء ، أبو زكريا يحي بن زياد الديلمي ، تحقيق أحمد النجاتي(د،ت) معاني القرآن (الطبعة الأولى)، مصر ،دار المصرية للتأليف والترجمة.
40. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد أبو بكر الأنصاري ، تحقيق: هشام بخاري الخزرجي(1423هـ) الجامع لأحكام القرآن(د،ط)، الرياض، دار عالم الكتب.

41. قطب، سيد إبراهيم حسين الشاربي: التصوير الفني في القرآن الكريم، (الطبعة السابعة عشرة)، دار الشروق
42. القنوجي، أبو الطيب محمد صديق خان(1412هـ) فتح البيان في مقاصد القرآن(د،ط).
43. الإمام مالك:تحقيق عبد المجيد تركي (1994م)، موطأ الإمام مالك (الطبعة الأولى)دار الغرب الإسلامي.
44. المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام، تحقيق: بكري حياني، صفوة السقا(1401هـ) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، (الطبعة الخامسة) بيروت ، مؤسسة الرسالة.
45. مسلم بن الحجاج النيسابوري ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (د،ت) المسند الصحيح بنقل العدل عن العدل إلى رسوله الله – صلى الله عليه وسلم ، بيروت ،دار إحياء التراث.
46. المطرزي، ناصر بن عبد السيد برهان الدين الخوارزمي(د،ت) المغرب في ترتيب المعرب (د،ط)، القاهرة، دار الكتاب العربي.
47. ياسين ، حكمت بن بشير (1420 هـ) موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور(الطبعة الأولى) المدينة النبوية، دار المآثر